ترعة بناما ومستقبلها

لهذه الترعة شأن كبير في القطر المصري فان كثيرين من اهاليهِ يذكرونها بالتأسُّف والتحسُّر لانهم اضاعوا فيها اموالهم وهم يحسبون انها ستعود عليهم بالربح الوافر كما عادت الاموال التي أُنفقت على ترعة السويس . وقد طلب الينا البعض ان نبحث عمَّا يظنهُ المحقنون من امر هذه الترعة ومستقبلها فعثرنا الآن على مقالة مسهبة في هذا الموضوع لامير البحر سيمور الانكليزي الذي ذهب بنفسهِ الى بناما وتفحَّص امر الترعة ووقف على تاريخها وما تمَّ حفرهُ منها وما لم يتم واسهب الكلام على ما يقدَّر لها في الاستقبال فلخصنا منها ما يأتي :

خطر على بال كثيرين منذ عُرف رسم اميركا ان يفتحوا ترعة توصل الاوقيانوس الاتلنتيكي بالاوقيانوس الباسيفيكي في احد البرازخ التي بين اميركا الشمالية والجنوبية وقد انفق احد الاميركيين سنة ١٨٥١ خمسة وعشرين الف جنيه على مسحها ليعلم اي برزخ منها اسهل للفتح هذه الترعة . والظاهر ان اول من اشار بخرق برزخ بناما اضيق هذه البرازخ هو المسيو ويس احد رجال البحريَّة الفرنسويَّة فانهُ عرض هذا الموضوع على المؤتمر الجغرافي الذي التأم في باريس سنة ١٨٧٥ فوافقهُ البعض على ذلك والَّفوا لجنة برئاسة الجنرال تور الجري صهر المسيو ويس للبحث في ذلك فاقرَّت اللجنة على ارسال جماعة من المهندسين لمساحة البرزخ برئاسة المسيو ويس . وعقد المسيو ويس اتفاقًا مع حكومة كولمبيا على فتح ترعة بناما وعاد الى باريس لتأليف شركة تقوم بهذا العمل الخطير ولما رأى الامر فوق طاقتهِ ولا قِبَل لهُ بهِ التجأ الى المسيو ده لسبس فاتح ترعة السويس فجمع هذا مؤتمرًا في باريس في اواسط سنة ١٨٧٩ وقرَّر فيهِ وجوب فتح هذه الترعة لعبور السفن على انواعها واخذ على نفسهِ القيام بهذا العمل العظيم واعطى المسيو ويس والجنرال تور وجماعتهُ اربع مئة الف جنيه قِبَل اتعابهم تعظيمًا لشأن العمل . وقدَّرت نفقات الترعة حينئذٍ بستة عشر مليون جنيه (اربع مئة مليون فرنك) قسمت الى ثمانمئة الف سهم كل منها عشرون جنيهًا ولكن لم يبَع من هذه السهام حينئذٍ سوى ١٦٠ الف سهم

وعزم المسيو ده لسبس حينئذٍ على ان يزور برزخ بناما بنفسهِ فبلغهُ في آخر سنة ١٨٧٩ واحتفل بالشروع في العمل في الخامس من يناير سنة ١٨٨٠ . وهناك نهر اسمهُ نهر شغرس يطغو ماؤهُ في بعض السنين فيغمر الارض ويعلو عليها اقدامًا كثيرة وكان قد طغا في شهر نوفمبر كأنهُ انذر المسيو ده لسبس بخطارة العمل الذي اقدم عليهِ وصعوبتهِ ولكن المسيو

ده لسبس لم ينتبه الى ذلك فجعل الاحتفال على ظهر البحر لانهُ لم يستطع ان يطأ الارض لانغمارها بالماء وكتب في الرابع عشر من فبراير سنة ١٨٨٠ يقول " ان النجاح اكيد واقسم بشرفي ان العمل في برزخ بناما اسهل من العمل في صحراء السويس "

ثم زار مدينة نيويورك وخاطب الحكومة الاميركيَّة في امر ترعة بناما فكان جوابها لهُ ان حكومة اميركا تعدُّ السلطة على كل برزخ يصل اميركا الشمالية بالجنوبية من حقوقها وواجباتها . وقال رئيس الولايات المتحدة حينئذٍ " ان الذين ينفقون على فتح هذه الترعة يتوقعون ان مملكة من ممالك اوربا العظيمة تحمي مصالحهم فيها وتلك المملكة لا يمكنها ان تحمي هذه المصالح ما لم تستعمل وسائط في اميركا لا تجيزها الولايات المتحدة الاميركية على الاطلاق " الاَّ ان المسيو ده لسبس تجاهل معنى رئيس الولايات المتحدة فارسل الى ابنهِ رسالة برقية يقول فيها " ان كلام رئيس الولايات المتحدة يضمن لنا حماية الترعة سياسيًّا " . ثم عاد الى باريس وشرع في جمع المال على اساليب شتَّى واختلفت التقديرات لنفقات هذه الترعة فقدَّرها المسيو ويس ٤٢٧ مليون فرنك وقدَّرها مؤتمر باريس ١٠٤٤ مليون فرنك . وقدَّرتها لجنة ده لسبس ٨٤٣ مليون فرنك وقدَّرها ده لسبس نفسهُ ٦٥٨ مليون فرنك ثم خفض هذا التقدير وجعلهُ ٥٣٠ مليون فرنك وقال ان بعض المقاولين عرضوا عليهِ ان يفتحوها و يعملوا كل الاعمال اللازمة بخمس مئة مليون فرنك فقط الى عشرين مليون جنيه . وأغريت جرائد باريس على الاخذ بناصرهِ فتقاطر الناس الى ابتياع السهام افواجًا وكان اكثر المبتاعين من الفرنسويين

وفي الحادي والثلاثين من يناير (ك٢) سنة ١٨٨١ اجتمعت شركة فتح الترعة اجتماعًا عامًّا فرفع اليها المسيو ده لسبس تقريرًا مسهبًا قال فيهِ " ان كل المسائل قد حلَّت وكل المصاعب قد تمهَّدت " ثم قدَّر ان النفقة لا تزيد على خمس مئة مليون فرنك (عشرين مليون جنيه) . وان الترعة ستفتح لعبور السفن سنة ١٨٨٧ . وبعد اربع سنوات قال انها لا تفتح قبل سنة ١٨٨٨ وبعد سنتين قال انها لا تفتح قبل سنة ١٨٨٩ وبعد سنتين اخريين قال انها ستفتح سنة ١٨٩٠ . ويمكننا ان نقول الآن انها لن تفتح في هذا العصر وقد لا تفتح مدى الدهر

وكان الغرض اولاً ان تكون الترعة مفتوحة من جانب الى جانب حتَّى تعبرها السفن كما تعبر ترعة السويس وطولها من الاوقيانوس الاتلنتيكي الى الباسيفيكي ٤٣ ميلاً ويضاف اليها نصف ميل من الاتلنتيكي وثلاثة اميال ونصف من الباسيفيكي يجب ان تعمَّق لعبور السفن فيصير طول الترعة كلها ٤٧ ميلاً وقدِّر انهُ يجب حفر ١٢٥ مليون متر مكعب من التراب والصخر

فتحها . وابتدأ العمل سنة ١٨٨١ وتوسطت سنة ١٨٨٣ قبل ان حفر من الترعة جزء من ١٨٠ جزءاً . وزيد عدد العمّال حينئذٍ فزاد متوسط ما كانوا يحفرونهُ في الشهر و بلغ ستمئة متر مكعب مع ان ده لسبس قدّر انهُ يكون مليوني مترٍ ثم زيد عدد العمّال ايضاً فبلغ المحفور من الترعة حتّى سنة ١٨٨٤ جزءاً من ٣٦ جزءاً منها بحسب تقرير الشركة

اما العوائق التي تعوق فتح هذه الترعة او تمنعهُ فهي

اولاً طوفان الماء في فصل المطر

ثانياً كثرة الامراض

ثالثاً اختلاف سطحي الاوقيانوسين

اما طوفان الماء في فصل المطر فكافٍ وحدهُ للعدول عن فتح الترعة في بناما لان هذا الفصل يدوم هناك سبعة اشهر من مايو (ايار) الى دسمبر (ك ١) ومتوسط ما يقع من المطر فيها نحو ١٢٠ عقدة وقد وقع مرّة خمس عقد ونصف في اربع ساعات ونصف . وهناك انهر غزيرة الماء يطغو ماؤها فيبلغ الربى ونهر شغرس منها ارتفع ماؤهُ مرة اربعين قدماً في بضع ساعات ومسيلهُ ارفع من الترعة بخمسين قدماً فاذا ارتفع الى هذا الحد كان ارتفاع مائهِ فوق الترعة نحو تسعين قدماً ولا يخفى ان الماء اذا سقط من هذا الارتفاع العظيم فقوتهُ تفوق كل تقدير وحصر . وقد ارتأت الشركة ان تبني سدًّا طولهُ خمسة آلاف قدم وارتفاعهُ ١٢٠ قدماً لمنع هذا السيول عن الترعة وقدّرت نفقة هذا السد باربعة ملايين من الجنيهات فيكون منهُ بحيرة عظيمة لها جدار ارتفاعهُ ١٢٠ قدماً حتّى اذا انصدع جدارها يوماً ما خرّب ماؤها البلاد وغرّق كلّ ما فيها ولم يبقِ ولم يذر وامسى حادث جنستن باميركا الذي غرق بهِ سبعة آلاف نفس نسيًا منسيًا فان البحيرة التي انفجرت في جنستن كانت تحوي ٤٨٠ مليون قدم مكعبة من الماء واما هذه البحيرة فتسع ستة آلاف مليون قدم مكعبة

والامراض كثيرة هناك واكثرها الحميات وهي شديدة الفتك ولاسيما بالاوربيين والصينيين . وقد أنشأت الشركة مستشفيات للعمّال انفقت عليها ستمئة الف جنيه ولكنها لم تكن تسع كل المرضى . والحمّى الصفراء لا تمهل المصاب بها غير يوم او يوم ونصف الاّ ان المسيو ده لسبس قال في احد تقاريرهِ ان الصحة في برزخ بناما على اتمها . ولكن الشركة عرفت خطأهُ وخطأها بعد ان انفقت ستين مليوناً من الجنيهات على ما لا فائدة منهُ ودفنت الوفاً من الرجال فقالت ان الامراض كثيرة فتّاكة وان متوسط ما يقع من المطر في العام ثلاثة امتار وان ماء نهر شغرس يرتفع في ست وثلاثين ساعة اثني عشر متراً وطوفانهُ يفوق كل تقدير

اما اختلاف الاوقيانوسين في الارتفاع فبعاوق فتح الترعة لان ماء الاوقيانوس الباسيفيكي يمدُّ في الربيع فيرتفع ٢٤ قدمًا وماء الاوقيانوس الاتلنتيكي لا يرتفع هناك الاَّ قدمًا ونصفًا فيجري الماء من الاوقيانوس الباسيفيكي الى الاتلنتيكي جريًا سريعًا يمنع عبور السفن . ولما ذكر هذا الاعتراض للمسيو ده لسبس استشهد على بطلانهِ بترعة السويس الاَّ ان ماء البحر الاحمر لا يرتفع اكثر من سبع اقدام وترعة السويس اكثر من ضعفي ترعة بناما طولاً وفيها بحيرات يجري ماء المدِّ اليها ومع ذلك كلهِ يجري الماء في الترعة وقت المد اكثر من ميلين في الساعة . اما الآن وقد عدِل عن الترعة الاولى واستعيض عنها بالهويسات فلم يعد خوف من المد

وكان موعد ده لسبس ان الترعة تتم سنة ١٨٨٦ اما الآن فابح للشركة الجديدة ان تتمها قبل الحادي والثلاثين من يناير سنة ١٨٩٩ اي بعد الميعاد الذي ضربهُ ده لسبس اولاً بثلاث عشرة سنة وليس على اسلوب ده لسبس الاول بل على اسلوب آخر وهو اسلوب الهويسات . فانهُ يراد ان تقسم الترعة الى ستة اقسام او بحيرات يعلو بعضها بعضًا ثم يهبط بعضها عن بعض فتدخل السفينة البحيرة الاولى من الاوقيانوس ويغلق الباب الذي بينها وبين الاوقيانوس ثم يصب الماء فيها بالآلات الرافعة حتَّى يعلو فيها الى موازاة البحيرة الثانية فتجري السفينة اليها ثم يغلق الباب الثاني ويرفع الماء في هذه البحيرة حتَّى يبلغ ارتفاعهُ ارتفاع البحيرة الثالثة وهلمَّ جرًّا الى ان تصل السفينة الى الاوقيانوس الثاني . والبحيرة العليا من هذه البحيرات ارتفاعها عن سطح البحر ١١٥ قدمًا ولها سدود عظيمة قائمة على جوانبها حتَّى اذا انصدع واحد منها انفجر الماء منهُ ونشر الخراب والدمار

ويعترَض على هذا الاسلوب انهُ يعوق مرور السفن في الترعة فاذا خلا من كل خلل وجاءتهُ السفن بالاضطراد ولم تزدحم في بعض الايام ولم تقل في غيرها امكن ان يعبر فيهِ في السنة ٦٧٣٠ سفينة ومهما كثرت عوائق هذا الاسلوب فهو الاسلوب الوحيد الذي يمكن اتباعهُ الآن . ونفقاتهُ بحسب التعديل الاخير نحو ٣٦ مليونًا من الجنيهات اما النفقات السنويَّة اللازمة للترعة بعد فتحها على هذا الاسلوب فقدِّرت باربع مئة الف جنيه . وقدِّر الدخل السنوي بمليونين من الجنيهات ولكن اذا اعتبرنا ان المسيو ويس قدَّر لفتح الترعة اولاً ١٧ مليونًا من الجنيهات ثم أُنفق عليها سنون مليونًا ولم يفتح منها الاَّ خمسها علمنا ان نقدير فتحها بستة وثلاثين مليونًا قد يكون بعيدًا عن الصحة بمراحل فلا بدَّ من التثبت في امرهِ قبل الشروع في العمل

واذا زار الانسان هذه الترعة الآن يعجب من تبذير الشركة في اقامة المباني الفاخرة لمستخدميها كما يعجب من فداحة رواتبهم فان المدير العام كان يأخذ عشرين الف جنيه في السنة . والآلات والادوات تفوق الحصر والوصف ويقال ان السفن كانت تصل الى هناك محمّلة بالادوات وحينما تعاق عن تفريغها تطرحها في البحر لكي لا تحمّل الشركة اجرة بقائها في السفن

وسنة ١٨٨٨ كان عند الشركة ١١٠ ملايين فرنك نقدًا ثم قبضت ٢٦٦ مليون فرنك والجملة ٣٧٦ مليون فرنك او اكثر من ١٥ مليون جنيه ولم يمض مدة طويلة حتّى دفعت من ذلك ٣٤٠ مليون جنيه فبقي عندها ٣٦ مليون فرنك لا غير او نحو مليون ونصف من الجنيهات اي نفقات شهر من الزمان ومع ذلك بقيت تصدر القراطيس وتبتزّ الاموال من اصحابها الى ان عجزت عن دفع اجور المستخدمين وابطلت العمل تمامًا في اواخر سنة ١٨٨٩

وجملة القول ان فتح ترعة في بناما تعبرها السفن من الاوقيانوس الى الاوقيانوس كما تعبر ترعة السويس امرٌ مستحيل الآن ماليًّا واذا امكن جمع المال الطائل لفتحها فلا يكون دخلها الآن وافيًا بربا المال الذي ينفق عليها ناهيك عن ان هذه الترعة لا يمكن حفظها من التلف ما لم تنشأ فيها اعمال عظيمة تمنع طوفان الانهار التي هناك من الإضرار بها . واما اذا تضاعف سكان اميركا واستراليا وتضاعف عدد السفن اضعافًا كثيرة فلا يستحيل حينئذٍ فتح الترعة واقامة الحواجز فيها لمنع مدّ الاوقيانوس الباسيفيكي وطغيان الانهر لان دخلها يكفي حينئذٍ لنفقاتها مهما كثرت

واما الترعة ذات الهوبسات فمستحيلة ماليًّا ايضًا ما لم تفلس بها شركتان او اكثر ثم تؤلف شركة أخرى تنتفع بالاموال التي خسرتها تلك الشركات والاعمال التي عملتها . ومع ذلك فبرزخ بناما اكثر البرازخ مناسبة لفتح هذه الترعة ومعلوم ان ترعة كورنث شرع في فتحها نيرون الظالم منذ الف وثمانمئة سنة ثم أهمل امرها الى ان فتحت في هذه الايام فلا يستحيل ان يأتي يوم تفتح فيه ترعة بناما كما فُتحت ترعة كورنث وتعبرها السفن من الاوقيانوس الواحد الى الآخر